

﴿الْقَارِعَةُ ١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ٢﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ٤﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ٥﴾ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ٦﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ٧﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ٨﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ٩﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ ١٠﴿ نَارُ حَامِيَةٍ ١١﴿﴾.

○ ﴿الْقَارِعَةُ﴾ هذا اسمٌ من أسماء يوم القيامة، وقد تعددت أسماؤها لتعدد صفاتها؛ فهي أعلامٌ وأوصافٌ، لأنها دالةٌ على أوصاف عظيمة لذلك اليوم.

و«القارعة» أي: التي تفرغ القلوب والأسماع من هؤل شدتها وعظم خطيها.

﴿مَا الْقَارِعَةُ ٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾ وهذا استفهامٌ للتّهويل، وبيان عظم ذلك اليوم، وأنه يومٌ عظيمٌ، ويومٌ شديدٌ. ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ في ذلك اليوم تكون حال الناس في مَوَاجِنِ بعضهم ببعض، واختلاط بعضهم ببعض كالفرش عندما ينتشر ويموج بعضه في بعض، وهو نظيرُ قوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿كَانَتْهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾. ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ أي: الصمُّ الصِّلابُ القويَّةُ المتماسكةُ المتينةُ ﴿كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ أي: كالصوف المندوف، فأصبح بعد ندفه كوماً، لكنّه غيرٌ متماسكٍ، بحيث لو هبَّ هواءٌ يسيرٌ تلاشى، فتذهب عن تلك الجبال صلابتها وقوتها.

ثم بيّن حال الناس في ذلك اليوم، وأهم على قسمين:

﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ أي: رجحت بالحسنات والطاعات وأنواع القربات، ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ أي: في جنة الخلد، في نعيمٍ مُقيم لا يُحول ولا يُزول أبد الآباد، قريّة عينه - بمنة الله عليه وفضله جلّ في علاه - راضيةٌ، ولهذا جاء في الحديث الصحيح: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، يَقُولُ اللَّهُ: تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تَرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تَبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تَدْخُلْنَا الْجَنَّةَ، وَتَنْجِنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ

﴿٧﴾. جعلنا الله أجمعين منهم بمنه وكرمه.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ أي: بالسَّيِّئَاتِ والمعاصي والدُّنُوبِ ﴿فَأُثْمِرُهُ حَسَابِيَّةٌ﴾ أي: أنَّ النَّارَ هي مأواه وهي مكانه، وقيل: «أُثْمِرُهُ» أي: رأسه، أي: يهوي على رأسه في النَّار.

﴿وَمَا أَذْرَكَ مَا هِيَ﴾ أي: هذه الهاوية، تعظيمٌ لأمرها، وبيانٌ لخطورتها.

﴿نَارُ حَامِيَةٍ﴾ أي: نارٌ شديدةٌ مُحْرِقَةٌ، وقد جاء في الحديث أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «نَارُكُمْ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ»^(٨). أعاذنا الله منها.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْهَيْكَلُ التَّكَاثُرُ﴾ ١ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ٧ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ٨﴾ .

«وهي سورة أخلصت للوعد والوعيد والتهديد، وكفى بها موعظة لمن عقلها»^(٩).

○ ﴿الْهَيْكَلُ التَّكَاثُرُ﴾ أي: أشغلكم، وجعلكم تَمُضُونَ في هذه الحياة في غَفْلَةٍ مُسْتَمِرَّةٍ.

﴿التَّكَاثُرُ﴾ أي: طلب ما يتكاثر النَّاسُ به؛ من مالٍ وتجارةٍ ومساكنٍ ومركوباتٍ وولَدٍ، وغير ذلك، ممَّا يُقَصِّدُ منه مكاثرة كلِّ واحدٍ للآخر؛ أشغلكم هذا التَّكَاثُرُ عمَّا خُلِقْتُمْ لأجله، وأوجدتُم لتحقيقه، وهو عبادةُ الله، وهذا حال كثير من النَّاسِ؛ انشغلوا بما خُلِقُوا لأجلهم عمَّا خُلِقُوا هم لأجله، وهو عبادةُ الله.

﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ أي: اسْتَمَرَّتْ حالكم في هذا الانشغال، وهذا اللُّهُو حَتَّى مُتُّمْ وأدخِلْتُم القبور، وهي حال كثير من النَّاسِ؛ فتجد الواحد منهم في لهثٍ وراء هذا التَّكَاثُرِ حَتَّى يموتَ، ومن ثمَّ يُدْرَجُ في قَبْرِهِ، وسمِّيَ هذا الدَّخُولُ للقبور زيارةً؛ لأنَّ القَبْرَ بَرَزْخٌ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَعْبَرٌ إِلَى الدَّارِ الْبَاقِيَةِ، يدخله المَيِّتُ دُخُولَ الزَّائِرِ؛ لأنَّه لَا يَسْتَمِرُّ فيه، وإمَّا هي زيارةٌ وَيَتَقَبَّلُ منه إلى الدَّارِ الْآخِرَةِ.

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾؛ ﴿كَلَّا﴾ هذا زَجْرٌ عن هذه الحال وهذه الصِّفَةِ، أي: ليس الأمر كما أنتم مُنْشَغِلِينَ به من تكاثُرٍ وغفلةٍ، سوف تعلمون: أي إذا أدخِلْتُم القبورَ، ورأيتم عاقبةَ العملِ حَسَنِهِ وَسَيِّئِهِ.

﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تأكيدٌ لهذا الأمر، وبيانٌ لِعِظَمِ هذا الشَّأْنِ.

﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ أي: لو كان عند الإنسانِ عِلْمُ اليقين بهذا المَالِ وهذا المَصِيرِ لما ألْهَاهُ التَّكَاثُرُ، وَلَمَّا

(٧) أخرجه مسلم (١٨١) عن صهيب رضي الله عنه.

(٨) أخرجه البخاري (٣٢٦٥)، ومسلم (٢٨٤٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٩) انظر: «الفوائد» لابن القيم ص ٣٠.

أشغله عمّا خُلِقَ لأجله وأوجدَ لتحقيقه من طاعة الله.

﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ أي: لتَرُدْنَ القيامة، فلتَرَوُنَّ الجحيمَ التي أعدّها الله للكافرين.

والجحيمُ - وهي النار - يؤتَى بها يومَ القيامة إلى أرضِ المحشر، كما في الحديث: «يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يُجْرُونَهَا»^(١٠). فيُعَايِنُهَا النَّاسُ وَيُشَاهِدُونَهَا.

﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ أي: تعايِنُونَهَا حقيقةً بأبصاركم؛ وذلك يومَ القيامة، يومَ يقفُ النَّاسُ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ.

﴿ثُمَّ لَنُنْشِئَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ أي: يسألكم الله - تبارك وتعالى - يومَ القيامة عن النّعيم الذي آتاكم في الدّنيا، ويدخل في ذلك نعمةُ المال، ونعمةُ الصّحّة، ونعمةُ الولد، ونعمةُ المركب، ونعمةُ المسكن، حتّى الماء البارد يُسأل عنه العبدُ يومَ القيامة^(١١). وهذا فيه التّنبية على ما صُدّرت به السّورة ﴿أَلْهَنَكُمْ أَتْكَأْتُ﴾ أي: أشغلكم، وأنتم ستسألون يومَ القيامة عنه؛ فإيّاكم أن يُشغلكم هذا النّعيم، وهذا المال عن شكرِ المِيعَم، والقيام بحقه والإقبال عليه، وحُسنِ عبادته والاستعداد للقاءه. جلّ في علاه. وإياكم أن يشغلكم هذا الذي خلق لأجلكم عمّا خُلقتُم أنتم لأجله. •



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَصْرِ ١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ٣﴾.

○ هذه سورةٌ عظيمةٌ، بليغةٌ، موجزةٌ، حوتِ الخيرَ كُلَّهُ، أفسَمَ الله - تبارك وتعالى - فيها بالعصر وهو تقلّبُ الليل والنّهار، وهو محلّ أعمالِ العباد من خيرها وشرّها.

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ أي: جنس الإنسان ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾ النَّاسُ كُلُّهُمْ خَاسِرُونَ، إِلَّا مَنْ اسْتَشْنَاهُمْ اللَّهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ، وَهُمْ مَنْ جَمَعُوا صِفَاتٍ أَرْبَعًا:

﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: بالله وبما أمرهم - تبارك وتعالى - بالإيمان به، وهذا فيه العلم؛ لأنّ الإيمان لا يكونُ إلّا عن علم وبصيرة.

﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: تقربوا إلى الله - سبحانه وتعالى - بأنواع العبادات وصنوف القُرْبَات طلبًا لرضوانه سُبْحَانَهُ، وفي إيمانهم وعملهم الصّالح تكميلٌ لأنفسِهِمْ.

﴿وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ﴾ أي: بدين الله الذي رَضِيَهُ لعباده وشرّعه لهم، وتواصيهم به، أي: حثّ بعضهم بعضًا على

(١٠) أخرجه مسلم (٢٨٤٢) عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(١١) أخرج الترمذي (٣٣٥٨)، والحاكم (٧٢٠٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يُسْأَلُ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ - يعني العبد من النّعيم - أَنْ يُقَالَ لَهُ: أَلَمْ نَصْحَ لَكَ جِسْمَكَ، وَنَرَوْكَ مِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ؟». وصحّحه الألباني في «الصّحيحة» (٥٣٩).

العناية به والمحافظة عليه، وهذا تكميلٌ لغيرهم بعد أن كملوا أنفسهم.

﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ أي: على طاعة الله، وعن معصية الله، وعلى أقدار الله المؤلمة، وهذا فيه أن طريق الدعوة لا بد فيه من أذى؛ فليصبر الإنسان وليحتسب، حتى يكون بإذن الله - تبارك وتعالى - من التاجين الفائزين، وقد قال الإمام الشافعي رحمه الله: «لو فكر الناس في هذه السورة لكفتهم» أي: لكفتهم واعظاً وزاجراً عن المنهيات، وسائفاً إلى الخير والبر بأنواعه.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَبَلِّغْ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ (١) الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ، ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ (٢) كَلَّا لَيُبَدِّلَنَّا فِي الْخُطْمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْخُطْمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمَوْقُودَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمْدٍ مُّمدَّدةٍ ﴿٩﴾.

○ ﴿وَبَلِّغْ﴾ أي: خسرانٌ وهلاكٌ، وقيل: هو وادٍ في جهنم، ﴿لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ أي: هذا شغله وديدته الهُمزُ واللَّمزُ؛ أي: الوقعة في أعراض الناس والطعن فيهم والثلب لهم، والهَمزُ بالقول، واللَّمزُ بالفعل والإشارة.

﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾ أي: هذا همُّه، جمع المال والاستكثار من جمعه وتعداده، وأنَّ عنده من المال كذا وكذا، ويملك من الرقيق كذا، ويملك من المواشي كذا، ويملك من المساكن كذا، ويملك من المزارع كذا... إلخ، مُعدداً مُتفاخراً مُتباهياً مُتعالياً على الناس بالأموال التي عنده.

﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ يَظُنُّ مَنْ هَذَا شَأْنُهُ وهذه صفته أنَّ هذا المالَ الذي يجمعه ويتكاثر به ويتفاخر به يكون سبباً لخلوده وبقائه في هذه الدنيا.

﴿كَلَّا﴾ ليس الأمر كما ظن ولا كما يحسب.

﴿لَيُبَدِّلَنَّا فِي الْخُطْمَةِ﴾ مَالٌ هَذَا أَنَّهُ يَمُوتُ، وَيَبْرُكُ مَالُهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ، ثُمَّ يَكُونُ مَالُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ يُرْمَى وَيُلْقَى فِي النَّارِ، وَالنَّارُ مِنْ أَسْمَائِهَا «الْخُطْمَةُ» لِأَنَّهَا تَحْطُمُ، أي: تكسر وتُشَمُّ ما أُلْقِيَ فيها من شدتها.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْخُطْمَةُ﴾ ما هي هذه الخُطْمَةُ؟ ماذا تكون؟ الاستفهام للتَّهْوِيلِ، وبيان عظم خطورة هذه النار.

﴿نَارُ اللَّهِ الْمَوْقُودَةُ﴾ أي: المسعرة، وبشدة الإيقاد يزداد حرُّها. أعادنا الله منها ومن كل ما قَرَّبَ إليها من قول

وعمل ..

﴿الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾ حُصَّتِ الْأَفْئِدَةُ بِهَذَا الْإِطْلَاعِ؛ لِأَنَّ الْأَفْئِدَةَ هِيَ مَنَبُعُ الْأَعْمَالِ وَمَصْدَرُهَا وَالْمَحْرُكُ لَهَا؛ فَلأَعْمَالِ تَنبُعُ مِنَ الْقُلُوبِ، «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ

كُلُّهُ؛ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ» (١٢).

﴿إِنَّمَا﴾ أي: النار ﴿عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ﴾ أي: مُغْلَقَةٌ مُحْكَمَةٌ الْإِغْلَاقِ.

﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ أي: على باب جهنم، سُدَّتْ عَلَيْهِمْ بِهَا الْأَبْوَابُ، فَلَا خُرُوجَ لَهُمْ مِنْهَا. *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ (١) ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ (٢) ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ (٣) ﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ (٤) ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ (٥).

○ ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَيُّهَا النَّبِيُّ! كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَبْرَهَةَ وَجُنُودِهِ وَمَعَهُمُ الْفِيلُ حِينَمَا أَتَوْا قَاصِدِينَ تَحْرِيبِ الْكَعْبَةِ.

﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ﴾ أي: مَكْرَهُمْ وَتَخْطِيطَهُمْ لَهُدْمِ بَيْتِ اللَّهِ ﴿فِي تَضْلِيلٍ﴾ أي فِي ضَيَاعٍ وَذَهَابٍ، وَعَاقِبَةٍ وَخِيْمَةٍ لَهُمْ، فَلَمْ يَبُوءُوا بِهَذِهِ الْفِعْلَةِ وَهَذَا الْمِكْرِ وَالْكَيدِ إِلَّا بِالْخُسْرَانِ.

﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ جَمَاعَةٌ مِنَ الطَّيْرِ مُتَتَابِعَةٌ، فَهَؤُلَاءِ جَاءُوا بِالْفِيلَةِ، وَهِيَ أَضْحَمُّ الْحَيَوَانَاتِ وَأَكْبَرُهَا بِزَعْمِهِمْ، لَا يَصُدُّهُمْ صَادٌّ وَلَا يَرُدُّهُمْ عَنِ هَدْمِ الْبَيْتِ رَادٌّ، فَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ طَيْرًا صَغِيرَةً تَحْمِلُ حِجَارَةً صَغِيرَةً فِي مَنَاقِيرِهَا. ﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ حِجَارَةٌ مِنَ الطِّينِ الْمَحْمِيِّ الصَّلْبِ مِنَ الْمَكَانِ الْعَالِيِّ، فَمَا يَقَعُ حَجَرٌ مِنْهَا عَلَى وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ إِلَّا هَلَكَ شَرٌّ هَلَكَةٍ.

﴿فَجَعَلَهُمْ﴾ أي: هَذِهِ الْجُمُوعَ الَّتِي جَاءَتْ لَهُدْمِ بَيْتِ اللَّهِ ﴿كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ أي: الزَّرْعَ الَّذِي هَجَمَتْ عَلَيْهِ الْمَاشِيَةُ وَأَكَلَتْهُ وَوُطِئَتْهُ بِأَقْدَامِهَا، وَهَذِهِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ، وَأَنَّ الْعَبْدَ مَهْمَا بَلَغَ مَكْرَهُ وَكَيْدَهُ وَتَرَبُّصَهُ يَجْعَلُ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - لَهُ الْعَاقِبَةَ الْوَخِيمَةَ وَالْخُسْرَانَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَالنَّبِيُّ ﷺ وُلِدَ فِي هَذَا الْعَامِ - عَامِ الْفِيلِ - الَّذِي وَقَعَتْ فِيهِ هَذِهِ الْحَادِثَةُ الْعَظِيمَةُ، فَكَانَتْ مِنْ جُمْلَةِ الْإِرْهَاصَاتِ لِمَبْعَثِهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ..

